

الحرب والسلام

كلمة تمهيدية

كنت أسمع ذات عشية إلى برنامج (الأمساء على العقل^(١)) الذي تذيئه عظة الإذاعة البريطانية فأصغيت إلى محاوره طريفة تجرئ بين نخبة من أعاظم الفكر في بريطانيا. ويلوح لي أن هؤلاء العادة المفكرين قد أدركوا ما تعرض له العقل البشري المرء المنتج من حرج وعنت وخطر بسبب ما فرضته أحوال الحرب من قيود جديدة ومن خضوع للطاية واستكانة للعاطفة المفترضة، فأروا، أن يصرفوه إلى معالجة المواضيع العلمية والأدبية البحتة، لعلّ الذهن بهذا الغذاء المفيد الصالح يخرج من غمرة الحرب، وقد نما وازدهر وجل عن نفسه صدام الحرج ووقع الأيام القادمة، فيعود كما كان قبل الحرب بل أدروع وأنشط.

أجل، لقد هُخفت بالاستماع إلى هؤلاء العلماء والأدباء الذين ليسوا أنفسهم أمناء على العقل بل حماة له، جعلوا يقدون جلسات دورية يتناولون في أثنائها البحث والإجابة على أسئلة مختلفة ترد عليهم من أطراف المسكونة، فيجيب كل منهم بدوره برتجالاً، مبيّناً رأيه في كل نقطة، فيحدث بينهم تارة جدل عنيف صاحب، وأخرى يسود الهدوء الشامل المنير بالاتفاق. وأعجب ما فيه حقاً وأكثره ثقتاً لنظر المبتدع الشرفي ومجملته لاهتمامه واحترامه اختفاء المتأصلة الشخصية الحاذقة حين مداولة البحث، إذ تحفزهم روح العلم وروعة التهذيب على احترام آراء بعضهم بعضاً والتسبي معاً إلى بلوغ الحقيقة المطلقة. فيتناول عريف الجلسة ما يديه الأعضاء من آراء، ويراعة نادرة يحاول تأخيصها والتوفيق بينها. ولا يكاد يشدّ عن هؤلاء إلاّ الفيلسوف الإنجليزي المشهور البروفسور (س. م. جود)^(٢) ذو البرة الموصيية الخيرة والعقل المهيمن والمعرفة الدقيقة الشاملة المؤذية أحياناً بسبب ذلك، والبدية الحاضرة والمقالة الطليمة تجرئ على لسانه فتطرب عقل السامع وقلبه معاً.

(١) Brain's Trust (٢) C. M. Joad

والفيلسوف (جود) قلنا يدور أي أسد في أثناء النقاش . وكم من رؤوس صلبة تحطمت
على صخرة رأسه !

في تلك الشخبة سمعتهم يجيبون على هذا السؤال - : « لو قيل أنك بمدسة أشهر
سوف تبرح هذه الدنيا إلى عالم آخر ، فإسالك تصنع في خلال هذه المدة ؟ » .

سمعت الفيلسوف (جود) يقول بأنه لن يبدل طراز عيشه ، بل يمضي في الحياة كأنها
هو يجهل حاعة الموت . ويمثل ذلك ما يدعوه بقوله إنه لو بدّل عيشاً - في البقية انقلبه الباقية
له من عمره ، لذلك هذا على أنه من حياة دأبلة ، وأنه يجهل حيوياً تماماً كيف يعيش عيشة
منايلة مرضية .

وقال العلامة جوليان هكسلي في كتابه « يتجمل إلى أني سأقضي معظم الوقت في الاجتماع
إلى دواغ بيتهون وشوريت ومندانيف المرميقية الخالدة لسوف أفكر أكرع من يسرع
هذا الفن الرفيع حتى يقضي الله أمراً كان منضوياً » .

بيد أنه لمقت نظري جواب أجدهم إذ قال : « أما أنا فلسوف أطالع قصة (الحرب والسلام)
لتولستوي ، وأعيد قراءتها المرة تلو الأخرى . حتى أستشبع من هذا الأدب الرائع وأزود
منه الراد الكافي قبل تلك الرحلة الطويلة الشاقة » .

وفي جلسة ثانية سمعت غيرهم يجيبون على هذا السؤال : « لو قدر لك أن تكون مؤلفاً
قصصياً خطير الشأن ، فما القصة التي تختارها من بين قصص العالم وتمضي لو كنت ألفتها ؟ »
ومع أن بعضهم ذكر (البؤساء) لهرجروديفد كبرغبلد لكثير وغيرهما إلا أنني ركبت
ألمس إجمالاً على كتاب (الحرب والسلام) لتولستوي ،

وقال الناقد الأدب المشهور فورستر في إذاعة لهم « أنه لا نزاع ولا إشكال في أن
قصة (الحرب والسلام) لأعظم ما أنتجه عقل أوروبي في هذا الباب » .

ولا أخال القارئ بعد ما سمع ذلك الاطراء عن هذا الكتاب إلا تأنقاً لمطالعة . وهذا
ما فعلته مدة شهر ، حُملت في أثناءه على أجنحة الخيال إلى أوائل القرن التاسع عشر ،
وألفت نفسي هامعاً في أجواء درسية تارة ، وأخرى أوروبية طيلة الأيام التي قضيتها في
صحة هذا الفيلسوف العظيم ، حتى كتبت ألسي أنني أهيئ في منتصف القرن العشرين
معاصراً لأعظم أحداث هامهما التاريخ .

ولقد خطرت لي أن أعرض للقارئ الكريم بعض القصول التي وقفت عندها في أثناء

مطالمتي لهذه القصة، عسى أن نجد في عرضها وبرامجها غذاءً كاملاً لنفوسنا ومنتحةً وزاداً نقلع به في حياتنا الفكرية والروحية. فأخرجنا إلى عذا الزاد في هدمه الدنيا المقفرة الخالصة من أطياب الفكر والروح ابن ما أخرجنا إلى مطالمة تراستوي والطلبت منه. فإن اسمه يلسم يدني جراح هذه الإنسانية الشاردة، المعذبة، وليس قلوب أهل السكر الكسيرة ليختلف عليهم طبياة القاسية. ويبحث في نفوسهم القمرة على مواجهة أحداث الزمان بإيمان وثقة وصلابة.

إن اسم تولستوي رمزٌ القمرة الروح التي لا يطمسها صخب الأيام ومثال الحفيدة الراسخة وعنوان للإصلاح الاجتماعي والمحبة الإنسانية الشاملة.

نظرة شاملة

تعتبر قصة (الحرب والسلام) أعظم ما أنتجه تولستوي لأنها تتناول موضوعاً تاريخياً خطيراً هو كفاح روسيا المرير ونضالها الجبار وعلى رأسها القيصر الكسندر والقائد كوتوزوف ضد جحافل نابليون الغازية الناشقة. وتبدأ حوادث القصة قبيل واقعة أوسترلتر. وفيها يعالج الكاتب الحرب كرمز لقوى الاجتماعية الكائنة الساعية لظهور بدني السبل، وليس كحركة درامية، يمثل أدوارها أفراد محدودون. ولهذا فإنها تؤلف وتجمع بين الواقعية والصوفية، إذ تصور بمهارة وإبداع هول الممارك وما يستلج في نفوس المتحاربين من هواظف وأفكار. والكتاب يترك في نفس القارىء أثراً صميماً بليغاً لا يخلو من التشويش فيشعر كأنه قد خرج من معمة القتال بنفس مقععة بنحان الحرب ودوي المدافع، متمثلة بالكربات الرهيبة والأعباح المرعبة. إنما أثر واحد يظل بالغ الانطباع في النفس كالآثر الذي يتبقى في نفس الجندي حين يخرج من حرب ضروس وقد عزا نجاحه منها إلى طائل الخط أو الصدفة أو القضاء الذي يلهم أدواراً كبيرة في حياة المقاتلين بل في مجرى جميع الحوادث التاريخية أيضاً.

تقع قصة (الحرب والسلام) في مفرق السبل التي سلكتها القصة منذ القدم، وكانت في مقدمة الكتب التي مهدت السبل لظهور هذا اللون من الأدب التصصي الذي يتجلى فيه الأسلوب الحديث ولو لم يسبقه إل القصص الإنجليزي المشهور ويتشاردن Richardson لصح القول بأن (الحرب والسلام) تمثلت الحد الفاصل بين أسلوب القصة القديم والحديث، ففيها انتقال من القصة التي تتميز بالتمثيل في الكلام وعدم تسلل المؤلف بصورة مباشرة فيما يقوله أشخاص القصة أو يتمنون كما هو ظاهر في بعض قصص دوستويفسكي إلى تلك

التي يصر فيها الكاتب عن رأي خاص ووجهة نظر معينة في كل ما يمرض له من مواضع وأحداث ، فيقف بين التهمة والتبينة وقنات قصيرة أو طويلة حسب مقتضى الحال ليحلل ويحلل وينسب ويملن .

واقف تروى العوامل البيكولوجي إلى سرد الحوادث ومحت الأوضاع الاجتماعية والسياسية والروحية ووصف الأشخاص . ويرى تولستوي في الفوضى على مكونات النفس البشرية واستخراج دقائق العقل الباطني إلى حد يُعجّل معه إليك أمام عقل وعي أصول البيكولوجيا الحديثة . لقد كانت القصة تمتاز من قبل بوصف الكاتب أفعال الأشخاص وسرد أفعالهم دون تعليق عليهم ، أما تولستوي فقد تطرق إلى بسط الأسباب وإيضاح الغلل وشرح الدوافع الخفية التي تحرك أشخاص القصة وتحفزهم للعمل ، كما ينحط على المحصور في (الحرب والسلام) و(أنا كارائينا) ولهذا باستطاعتنا تقسيم مؤلفات تولستوي في باب القصة ومن حيث مراعاة التحليل البيكولوجي إلى قسمين الأول وهو دور بران وتحضيره والثاني وفيه ألف (الحرب والسلام) و(أنا كارائينا) على نسق جديد ، بيد أنه في (الحرب والسلام) أكل قسه وحسنه وجعله ، وجعله غاية في قسه .

ولقد اتخذ تولستوي لقصة (الحرب والسلام) جوراً تاريخياً زادها قيمة وروعة وبهاء وقربها من الحياة الواقعية ، وقدّمها للناس أدباً ممتازاً ، فتكاد لا تقدرى وأنت ماضٍ في مطالعتها أنفي الماضي نعيش مع أولئك الناس الذين امتلأت قلوبهم وأذهانهم باسم نابليون ، أم في الحاضر بمشاكله وشؤونه المختلفة كل الاختلاف ، بل إنك في الواقع تحار في ما تراه ، حقيقة تسميه أم خيالاً ؟ لأن تولستوي كان بارعاً في اكساء الحقيقة ثوباً موشى زاهياً من الخيال الوثناب ، وريفة فتانٍ ماهر طلع تيار الحوادث التاريخية التي يطرب لها الأدباء ولا يابها لها صغار المؤرخين ، فيندر أن نمر عليها في كتب التاريخ . تلك الحوادث الفردية والاجتماعية التي تجمّعت وتكوّنت وصارت فيما بعد تاريخاً قوياً تدفق وفاض عن المجتمع الرومي ، وحرر العائلة الرومية والأوربية كذلك . وهما قبل ضده من عدم اتقانه إبراز صورة نابليون برهن عنها التاريخ ، وهما أثير من جدل وأعتراض حول تعليقه أسباب الحوادث التاريخية ، فاني أراه سبباً لا بُدافع وفتاناً ذا عين نافذة دقيقة التصوير ، وذهنية جارية بصر أكثر وأبعد مما يستطيع المؤرخ أن يفعله . بل إن قصة (الحرب والسلام) تصح أن تسمى الحلقة المفقودة بين الحقيقة والخيال ، وبين الأدب والتاريخ ، ذلك أنها مزيج رائع من الحقيقة والخيال وصورة فائقة خلافة يتعاقب فيها الأدب والتاريخ .

وفي (الحرب والسلام) ابتدع تولستوي نثراً جديداً خالداً هو فن القصة المطلقة المكشوفة

التي تعرفك في بدء الأمر على مجتمع غريب عندك ، ثم تدبك من أفرادهِ وتؤن عرى الألفة والصدافة بينك وبينهم لمدة طويلة . ونحن يفرض عليك التمدد التام في مفارقتهِ ، تبعاً لهُ فذ غلّ ماضياً في سبيله دون أن تعرف له نهاية . عن التمدد من ذلك ما تصور دما مطابقته من القمص التي ترى لها بداية واضحة وتصل فيها إلى نهاية محدودة تسكن عندها كل حركة ، وتكاد تقف كل نبضة من نبضات الحياة ، كأن لها باباً تلجج في أول الأمر ، ثم ما تلبث أن تروصد خلفك حين تفرغ من مطالعتها . من هذا النوع مثلاً (سوق الثور) لنا كرى ، و (العاحونة على نهر فلوس) للكاتبية الإنجليزية المعروفة بجورج اليوت وغيرهما .

أما (الحرب والسلام) فتكاد تنجيء في صعيد واحد عم الأياذة والأوديسا ، ذلك أن تيار الحوادث وسيل الحوادث وسر الزمان لا يقف في أيّ منها إلى حدٍّ أو يبلغ نهاية رغم انتهاء الكتاب ، بل يظل جارياً جارفاً أبداً ، متدفقاً أبداً . وفي كل مرة يبدو لك فيه أن القصة أو شكت أن تنتهي ، لمحت حوادث جديدة قد تولدت وانبعثت وراحت تسعى إلى ما لا نهاية له . وهذه ميزة تنفرد بها قصة (الحرب والسلام) وحدها ، ولا توجد في كتب تولستوي السابقة أو في قصص غيره من الأدباء . لهذا فإن قصة ما لم تحو ما حازته (الحرب والسلام) من شهرة واسعة في أوروبا ولا سيما في بريطانيا . فقد صحاها الكاتب القصصي المشهور (فلورودي : أعظم قصة ألفت) . وقال عنها الناقد الأدبي (ليوك) (أنها صورة الحياة لا يعلو عليها شيء) إن أول واجبات الكاتب القصصي خلق الحياة ، وهنا ترى كيف تخلق الحياة بحق . إذ أن قصة غيرها لم تتناول طامة الناس على مثل هذا النطاق الواسع الذي تلجج في الحرب والسلام) . فبغيره وأندرو وناتاشا وغيرهم من شخص القصة جميعهم من أبناء الأمم واليوم والغد ، ولا ينفرد أحد بشيء من كل الناس في كل الأزمان !

ويقول الناقد الإنجليزي فورستر في كتابه (حوادث من القصة) فلم يقسّن لكاتب غير تولستوي وضع صورة كاملة لحياة الإنسان في المظهرين البيتي والطولي ، المشائين في البيت وفي ميدان القتال . والقارئ لن يضيئ ذرعاً بهذا الكتاب أو يمتربه ملل وسأم من قراءته لأن حوادث القصة ترفعه على أجنحتهم - أرفعاً وتجري به فوق الفضاء وفوق الزمان معقبة في نفسه أرقاً كأثر الموسيقى الخالدة . فيشعر حين يقطع هولماً في قراءتها كأنها أوتاراً عظيمة قد تحرك خلفه باعثة أنفاساً هجبة ساحرة . أوتاراً آتية بالنغم العذب من مساحات روسيا الممتدة الفاصحة ، قد انتثرت فوقها بحور وقباب وحقول وأنهار وجسور وجرت عليها أحداث وخفاوب وتحركت فوقها أمم وشعوب . فتمتلئ نفسك حين تمر بها

أو تشعر بما يعاني طائفة ومشاعر سامية وألحانا مدوية رائعة . كثيرون هم الذين يتحسسون الرموز بالزمان حين يكتبون ، بيد أن الذين يتحسسون بالفضاء قلائل . ومنهم تولستوي فأنك تشعر أن كل حادث في القصة إن كل عنصر منها حتى حالة علاقته بالناس العسكري يكاد يجذب وراءه حياة زاخرة بالناس من كل جنس ولون ووجوداً هائلاً تحس به وتتركه فتسطح في نفسك كل الحياة .

ولقد أجاد الأديب الفرنسي دي فوج النقة في الأدب الروسي حين قال « من اليسير ادراك ما يخص القارئ من شعور وهو يطالع (الحرب والسلام) أو (أنا كارائينا) . فانه يرى نفسه ياديء يده حائر العقل ، مليل الذهن لا يساق مع حوادث القصة بسهولة ثم يهتز به صام وكل عقلي ما يلبث أن يزولا بعد أمد قصير ، إذ تحمله حوادث القصة حلاً وتدفقه مع حركتها الدائمة دفماً وتأسره بما فيها من مشاعر متشعبة وألوان من الحياة مختلفة ، ويحيل له من بين أشخاصها أصدقاء يحب أن يدنو منهم ويحاشمهم ، وأن يسير أغوارهم ويبحث عن مصارمهم في الحياة . بل أن يشعر حين يذبح قراءتها بما يشعر به كل فرد من لوحة البن وأذى الفراق حين يودع أسرة نشأ في ظلها وترى مع أبنائها ، وطغيم أعزاً طويلاً . ان قصة (الحرب والسلام) صورة صادقة لحياة مسافر زمانه الدهر بصحبة فئة من الناس الغربيين منه ، فالعيش معهم يبعث في نفسه القلق والضجر والسكدر في بدء الأمر ، ثم سرعان ما يتكشف له ما خفي عليه من أمرهم ، ويدنو مألوفاً محبباً لديه ما غرب من طبيعهم ، فيجذب إليهم ، ويتعود طريقتهم في الحياة ، ويخرج بهم حتى يرى نفسه واحداً منهم ، فلا يعود يطبق الافتراق عنهم . وهذا شأن القارئ مع هذه القصة العظيمة .

ولا بد أخيراً من الاشارة الى أن تولستوي كان حاذقاً في تقسيمه أشخاص القصة إلى فريقين طائي وتاريخي دون انخلط بينهما بما قد يزيد في تعقيد عناصر القصة أو تفويض حوادثها . وقد يفيدك ان تذكر وأنت تطالع (الحرب والسلام) أن تولستوي كشأنه في معظم قصصه قد صور بعض جوانب خلقه ومظاهر شخصيته وطرفاً من حياته في البرنس أندرو ، هذا البطل الانساني الطامع الذي لست أعلم بأنك سوف ترى فيه همماً عالية وصفات نبيلة سامية تحمرك لاحترامه ، بل تحب اليك مصادفته ، وتدفك لأن تذرف الدمع مثل ما فعلت يوم رأته يفارق الحياة . كما أن جانباً من نفس تولستوي يبرز بوضوح في شخصية بيير القصة الذي يعتبره أكثر الناس ، واعتبره كذلك بحق ، بطل هذه القصة العالمية .

تولستوي وتعليل الحوادث التاريخية

لا ريب في أن جانباً من عقيدة تولستوي كما تتمثل في قصة (الحرب والسلام) تتجلى في هذه الوقفات التحليلية العميقة التي يفتننا على عامس القصة ليعالج فيها ما يمرض له من مسائل التاريخ ومساكنه الكبرى ، ولست بحاجة لتفصيل حوادث هذه الحقبة من التاريخ التي يعيش فيها أعضاء (الحرب والسلام) لأنها أشهر من أن توضع وتعرف الأديب المثقف . ولست أمك في أنه لم يمرّ على أوروبا في جميع أدوار تاريخها السيادي برهة لفتت إليها الأنظار ، وأعيت في أذهان الأوروبيين تأثيرات وأنشطة أبلغ وأعمق مما فعلته تلك الحقبة من التاريخ التي عُرف فيها نابليون قائداً عظيماً اسمه على كل لسان ، وقنسلاً ثم إمبراطوراً خطير الشأن ، ولست أدري من أبعد تأثيراً في نفوس الناس وأخذ وأعمق ، ذلك العهد من التاريخ ، أم هذه السنوات الست التي ودّعناها بالأس وماني العالم في خلطها وثلاث أشهر حرب في تاريخ الوجود البشري .

في هذا الفصل من كتاب (الحرب والسلام) يعالج تولستوي الأسباب التي تقضي إلى الحوادث التاريخية عامة ، والتي بعثت الحرب بين روسيا وفرنسا خاصة . وفيه يحاول دحض عقيدة رسخها علم التاريخ وطبها في الأذهان ، ودعّم حقيقة خطيرة تبدو لأول وهلة غريبة ، وهي أن الرجال الذين ، في أيديهم مقاليد السياسة والأدارة والحك إعمالها في الواقع غبيد التاريخ ، يستخدمهم ويستثمروهم كالآلات الصم لبرغ أهدافه المقررة من قبل فلا يستطيع هؤلاء الحكم والقواد مقاومتها في ذلك ، لأنها أهداف مقضى بها منذ الأزل فلا مبدئ لهم عن الاندفاع والجري مع تياره الجارف والرضوخ لحركته واتجاهه . يقف فيلسوفنا من الحملة الثورية مندعماً خائراً معقود الاحمال ، لا يدري كيف يطل أحباب هذه الظاهرة العظيمة . ألوف بل ملايين من الناس في غربي أوروبا يشروعون في التجمع والاحتشاد منذ سنة ١٨١١ وأخذون في الرحف صوب الشرق ويعتزون في ذلك فيتخطون الحدود الروسية ويكادون لا يقفون إلا في موسكو . لكنهم ما يلبثون أن يعودوا القهقري ويرجعوا من حيث جاؤوا حاطلين في أيهم بدور الخيبة والهزيمة المنكرة . يقابل ذلك ملايين أخرى تتأهب في الشرق لجباية أولئك ، فتندفع من أواصر روسيا ميسمة سطر الغرب ، وفي ١٢ حزيران ١٨١٢ تلتقي هاتان الموجتان الصاخبتان من بين الإنسان ، فيكون ذلك نذير وقروح حرب لم يعرف لها التاريخ من قبل نظيراً . هذا الاضطراب بين الملايين يراه تولستوي في ظاهره منافياً للعقل ومخالفاً لقوانين الطبيعة البشرية . فلا

رجرم إن وقف حائراً يبحث عن الملل الحقيقية التي أدت إليه .

فيستعرض الآراء التي يبديها الناس في بواحي تلك الحرب ، فيرى أن المؤرخ يعزو وقوعها إلى الإهانة التي ألحقها نابليون بالدوق أولدبرج^(١) ، وإلى عدم مؤازرة قيصر روسيا في إشجاع الحصار الذي فرضه نابليون على بريطانيا ، وإلى منح نابليون الشخصي أو نبات قيصر وصلاية عوده ومثابة ركزوه ، وإلى أغلاط الرجال الذين يدروون دفة السياسة في أوروبا . ويقول تولستوي إذا كان أحد هذه الأسباب التي يسردها المؤرخ أم كتبها مجتمعة ، هو ما أثار تلك الحرب ، فقد كان بالإمكان الجيلولة دونها بكل ما ، كان يحسن مثلاً كل من أولئك الساسة النية والتصرف ويخلص في جهوده لتخويف السلم ، فيسحون جميعاً إلى الإتفاق على نصوص للمهادنة بما قد يؤول إلى حسم أسباب النزاع واحتثات الشر من أصوله . أو أن يحط نابليون إلى الكسندر رسالة تتم عن روح المؤدّة الصادقة والعفاء الخالص ، مُعرباً فيها عن رثاه بإعادة دوقية أولدبرج إلى صاحبها في الأصل ، إلى غير ذلك من السبل التي تسرق والمجهود التي تبذل للجيلولة دون وقوع الشر أو تفاقه . ذلك ما يذهب إليه المؤرخ . أما نابليون فيرى أنه لم يكن ثمة بد من الصدام مع روسيا بسبب نشاط الدبلوماسية البريطانية وذهابها الشيطانية (كما حرّح في جزيرة القديسة هيلانة) . ثم من البديهي أن يرى أعضاء البرلمان الإنجليزي طموح نابليون وزعته الجشعة للسيطرة وجبّ للسلطان ، مبعياً آخر وجيباً . وأن يصدّ صاحبنا الدوق أولدبرج في دوره ملحقه من إهانة ، الباعث الحقيقي والمباشر لها . وأن يرى رجال الأعمال في أوروبا حبيها في النظام الفارسي الصارم الذي فرضه نابليون على أوروبا وذلك محظر المتاجرة مع بريطانيا ، ثم سبب ضجراً وكدرأً ودهوراً إقتصاديّاً خطيراً في أوروبا وكذلك في روسيا . أما القواد العسكريون وغيرهم من رجال الجيش فيؤكدون أنه لم يكن مناص من حرب تقع لتشتغل ألوف الساطلين منهم ، بينما يرى الساسة في ذلك المصراً أنها نجت من اخفاقهم في إخفاقهم عن نابليون إخفاء تاماً بنود تلك المعاهدة الثمينة المعقودة بين روسيا والنمسا سنة ١٨٠٩ . زد إلى ذلك العيضة الحادّة والأسلوب الجاف الذي به خطب الأنداز رقم ١٧٨ . ومن البديهي أن تبدو هذه الأسباب وعشرات مثلها وجيبة مقبولة لدى أهل ذلك العصر حسباً يقرأى لكل منهم ، ومن الزاوية التي ينظر منها إلى حوادث التاريخ المعاصرة أما

(١) من دوقية أولدبرج في ألمانيا انزعها نابليون سنة ١٨١٠ من صاحبها بطرس فردريك أستف فولك . وقد أتى أن ياتل نابليون بمقاطعة ارنوت : Ennet) فأرغم على الفرار والاتفاق بالخفاء ضد نابليون بيد أنها طادت إليه في مؤتمر فيينا سنة ١٨١٥ مع مقاطعة بكنفيلد Bukenfeld بمؤازرة قيصر روسيا (الموسومة البريطانية)

نحن أهل هذا الزمان ، فامرتنا منها؟ أحرّ بنا أن نراها عقيدة ثابتة لا وزن لها ولا خطر ، فلا تنفع الباحث المفكر منا أو تنفع غلته . ذلك لأن المعاصرين لتلك الأحداث التاريخية العظيمة لم يكتفوا في الواقع بمصرون من الحرش غير الأشجار على حد التصير الإنجليزي في حين أننا ، بسبب البعد الزمني نكاد نعتبر الحرش بكامله .

ويعالج تولستوي جميع هذه الأسباب مبيّناً صعوبة بل استحالة الأخذ بها ورغم زعمه بأنه ليس بالمؤرخ المحقق . ويعتقد أن كل سبب ظاهر لاحتمال الفرضية قد يبدو بحد ذاته مقبولاً مقبولاً ، بيد أنه ليس كذلك حين ينقاس بمحاورة الطوارئ المنبثقة عنه . إذ لا يمكن أن يبلغ سبب واحد حداً كبيراً من القوة والتأثير بحيث يجلب على العالم الأوربي أحداثاً خطيرة كذلك . لهذا يؤكد تولستوي أن تكون هناك أسباب أخرى عديدة مماثلات جميعها يبدأ واحدة وتساندت وتآزرت . وربما سلكت في بدء الأمر سبلاً هتّى ، إلا أنها لم يكن لها مناس من الالتقاء أخيراً في طريق واحد ، والتضامر والسعي نحو تحقيق هدف واحد هو ذلك النزاع والاضطراب الذي أوسى وقوعه محتملاً . ويحتمل لتولستوي أن رغبة جندي واحد في القتال أو عنه لسبب يبلغ من الوجاهة والظهور والتأثير حداً لا يتقبل حتماً بلغه رفض نابليون سحب قواته عبر نهر الفستولا ، زولاً على طلب الكسندر كشرط أسامي لوقف القتال . بل أنه لا يقل قيمة وخطراً عن رفض نابليون إعادة دونية أولدنبيرج لصالحها إذ لو أن جندي واحد الانخراط في سلك الخدمة العسكرية أو عدم المنفي في العمل في أحد أدوارها وفعل ذلك ثلاثاً وثلاثين وغيرهم لأدّى ذلك إلى نقص في عدد رجال الجيش وبالتالي إلى عدم إقدام أحد للمسكرين على المجازفة بقبول الحرب ، أو امتثالها في أحد مراحلها بأية حال .

فقد كان من اليسير تجنب هذه الحرب على هذا الأساس من التحليل الخاطيء لو لم يرد نابليون تحدياً واماعة في طلب القيصر سحب قواته وراه الفستولا . فيأمر جنوده بالمهجوم لحرثك الاساعة . وكان هيناً أن يُحتمل دون وقوعها لو رفض الضباط والجنود العمل في إحدى مراحل الخدمة العسكرية . والحرب ما كانت لتقع قط لو أحبط نشاط الدبلوماسية البريطانية كما زعم نابليون ، أو لو أنه لم يكن في الوجود رجل اسمه الدوق أولدنبيرج ، أو لو أن الكسندر لم يفض بكرامته بسبب امتهان نابليون له كما يدعي ، أو لولا أنه لم يتم في روسيا آتخذ حكم فردي مطلق ، أو لولا اندلاع لهيب الثورة الفرنسية من قبل ، وما تلا ذلك من قيام دكتاتور واهم بطورية ، أو لولا جميع الظروف والأحوال التي أدت إلى تآزم الوضع السياسي بسبب الحالة الاقتصادية والاجتماعية مما أنفض إلى الثورة

الفرنسية . والواضح ان ليس ثمة سبب واحد من هذه الاسباب التي يذكرها . الناس إلا
 أمكن معالجته بفرده والحيلولة بواسطته دون وقوع الحرب . ولكن الحقيقة التي لا ريب
 فيها انه لم يكن له سبب واحد أو عشرة ، وإنما هذه الاسباب كلها وألوف غيرها من المنظورة
 وغير المنظورة الظاهرة والباطنة ، جميعاً عملت معاً وحلكت سبيلاً واحدة ، فأنتجت تلك
 الحرب وتلك الحقبة الهائلة التي ما يزال يتردد صداها في نفوس الناس وعقولهم في أوروبا وفي
 آسيا كذلك .

وقد يشرم المرء ان وقوع الحرب الروسية - الفرنسية كان متوقفاً على ارادة القيصر
 أو الامبراطور وحدهما لا غير . والحقيقة انه كان يتوقف على ارادة ملايين البشر الذين في
 يديهم مفردتين ومجتمعين السلطة الحقيقية والتأثير العميد كالجوهر الذين رضوا لانفسهم ان
 تقدم على مذبح المريح ، والرجال الذين رافقوا الجيش وأمدوه بالموث والمعدات الكافية ،
 والعامل الذين صنعوا كل لوازمه وميأوا حاجاته ، والمدنيين الذين دمروهم وعضدوه
 عزازتهم الادبية والمادية ، ومئات الألوف غيرهم بما لكل منهم من تأثير مباشر أو غير
 مباشر في سير تلك الحرب في روسيا وفي فرنسا بل في جميع أوروبا .

وما دام الامر على هذه الشاكلة ، فلا يحسن من الرجوع إلى القدرة كمتينة أساسية
 يستند اليها في تحليل اسباب تلك الحرب بل كل حرب في التاريخ لا يستطيع للعقل احصاء
 اسبابها . إذ كلما حاولنا رد تلك الحرب إلى بواعثها الحقيقية وقصدنا تحليلها إلى عواملها
 بشكل منطقي كلما لاحت لنا عبدة عن العقل خارجة على قواعد المنطق ، أو تبدت كأن ليس
 من سبب ظاهر لها تفهمه ونقيده ونبرره .

ويقول تولستوي جارحاً القدرة ان لكل امرء في الحياة مطلق الارادة وعمل الحرية
 في تعيين أهدافه الشخصية والسعي كمن أراد إلى بلوغ تلك الأهداف فيأتي من الأفعال ما
 قد يقربه من تحقيقها ، ويعرض عما يقصيه عنها . والواقع انه حالما يصدر عنه عمل ما
 خطير أو قول له قيمة ، فانه في تلك اللحظة ذاتها يفلت من يده ويخرج من نطاق سلطته
 وسيطرته ، بحيث لا يستطيع استرجاعه ، فيدخل في نطاق الماضي أو بعارة أخرى في نطاق
 التاريخ ويصبح لذلك القول بعد الانشاء به أو للعمل بعد اتيانه تلك الخطوة الاجتماعية
 والأهمية المقدرة المحنومة والمتبعدة المحدودة . من هذا نستنتج ان حياة الانسان مظنن
 مختلفين ، مظهر الفرد وهو ما يتعلق بحياته الفردية المستقلة ، التي كلما انطلقت وتجردت في
 حياتها وأمرورها وأعمالها تحررت وأبت التقييد بقاعدة أو الارتباط بقيد . ثم مظهر
 العنصر ، وهذا يتعلق بالحياة الاجتماعية المنهوية . وفي يرى المرء نفسه مكرهاً عليهما

رضوخاً لقوانين شرعت وفواعل وتقاليد فُرِست ووضفت ، وليس من مبدل الى التحرر منها . فالإنسان في المظهر الأول يكاد يعيش حياته لنفسه ، وفي مبدل تحقيق أهدافه الفردية وإعياً مستقلاً إذا أحب . ولكنه يبدو في المظهر الثاني كأنه العوبة في يد غيره ، أو كأنه آلة تعمل دون فهم أو وعي في مبدل تحقيق أهداف تاريخية كرنية تتعلق بعنصره لخاص أو بالإنسانية جماء .

وهنا نرى كيف يدخل طبل الصدفة في المظهر الاجتماعي من حياة الإنسان ، فقد تقع حوادث وتجيء أعمال ملايين من الناس في حين واحد ، فتدخل جميعها في نطاق الماضي الذي هو التاريخ ، وتسبب كلها بمحصورها قوة هائلة لها تلك الأهمية والقيمة التاريخية وكلما سما المرء منبأ وارتقى في سلم الحياة السياسية أو الاجتماعية ، كثر الناس الذين يحيطون به ويلتفون حوله ، وكلما ارتفعت مكانته وتضاعفت سلطته انضح لنا بجلاء انه خاضع لسلطة القضاء في جميع ما يصدر عنه من أقوال أو أعمال لها علاقة بالمجتمع أو بغيره من الناس ، ليس له أدنى نصيب من القوة والارادة الحرة المستقلة في ذلك .

إن قلب الملك في يد الله ، والملك هو عبد التاريخ ، والتاريخ الذي هو الحياة الاجتماعية العامة غير المدركة أو الواعية إنما يستغل كل لحظة من حياة الملك ويستخدمها في مبدل تحقيق أغراضه التي لا تدرك ولا ترى ، فمع أن نابليون يعتقد اعتقاداً جازماً بأن إعلانه وحده كان يتوقف مصير كل ما يجري حوله من أحداث سياسية وأعمال عسكرية ، وأنه وحده مسؤول عن منك دماء الملايين من الأرياء (كما عبر ذلك فيصرو روسيا في رسالة بعث بها الى نابليون) إلا أن تولستوي يعتقد جازماً بأن نابليون لم يكن في حين ما أكثر من ذلك مستعبداً لمشيئة القضاء ، مكرهاً على طاعته ، يسيره القدير وبوجهه أن شاء ، وكيفما شاء ، ويسوقه وغم ألقه ، مع ظن نابليون بأنه يعمل وفق ارادته الشخصية ، الى السير في مبدل واحد مع مجموعة المظاهر الاجتماعية لحياة الأفراد الذين يمثلون شئ الأديوار على مسرح الحياة .

لقد زحف أهل الغرب نحو الشرق في حركة خطيرة الشأن مستهدفين تقهليل اخوان لهم من بني الإنسان . فنقف من هذه الظاهرة مندعشين باهتين ، نبحث عن الأسباب التي أدت الى مثل هذا الشر الاجتماعي . فيجيب تولستوي بأن الوفاً من الحوادث الدقيقة جاءت صدفة في حين واحد ، ووقعت في الوقت الملائم ، وانتظمت كما في عقد لاجداث تلك الحركة الشريرة الزاخرة ، فيسقط نابليون على روسيا لمروجها على قواعد النظام القاري ، وما حل

بالذوق والبرج من الهابة وسوءه ، وكذلك رحف نابليون على روسيا للعسوق على حلم
مسلح كما خيل له ، ثم زعته نابليون الحربية كتبها تحمي في وقت يمثلج فيه . في صدور أبناء
فرنسا ميل للعرب ورغبة في القتال . وانسهار المدنيين منهم بمظنة الاستعداد الحربي ،
وضع الكثيرين منهم في غنائم وأصلاب تموض عليهم ما اتفقوه في سبيل ذلك الاستعداد .
هذا مع ما لاقاه نابليون من تكريم حلفائه ذلكي روسيا وسكوفيا وأمبراطور النمسا
له في درسدن وانساقهم به طيبة شهر ، مما زاد في عجزته وزهوده وحيلائه وغذبي زعته
المسكرية وقواها . وكذلك المفاوضات الدبلوماسية التي عقدها الساحة للوصول الى سلم
هامل دائم ، فأعقب وعند كل منهم بالتمنعجية في سبيل ذلك مسأ لكرامة الدولة التي يمثلها
وجرحاً لكرامتها . هذه وملايين من الأسباب تهاأت واجتمعت حسب قانون المصادفة
وتكيفت على غرار أدى الى تلك الحرب السامحة .

حين تمنحج التماحة على الشجرة وتسقط ، نسال عما سبب ذلك السقوط . هل هو جاذبية
الأرض ، أم ما أصاب ساقها من بيس وجفاف ، أم الشمس التي ساعدت في انضاجها ، أم
الريح ، أم لأنها أضحت ثقيلة لا قبل للقصن بها ولا طاقة له على حملها ، أم لأن هناك صيباً
واقفاً ، يرتو اليها عن بعد ، وكل جارحة في نفسه تدعو لها بالسقوط . الواقع أن لا واحد
من هذه هو السبب الوحيد بمفرده بل أن تصادف عني الظروف ووقوع الحوادث والتفاعلات
المضرة والعنصرية في حين واحد هو ما أدى الى ذلك السقوط فكما أن العالم النباتي يبرو
سقوط التفاحة الى أعليه الطلي ، فكذلك يزعم صينا بأنه انما نامشي عن دعواته الحارة .

ليس الملوك والقواد والساسة النظام الأعتاوين لعصورهم وأزمانهم وأسماء الحوادث
التاريخ التي تقع في عهودهم . ولا تزيد الصلة بينهم وبين تلك الأحداث والصور عن تلك التي بين
الملاج في القارورة وبين الابضاح الملصق عليها من الخارج . بل لا تعدى قوتهم وميطرهم
على الحوادث ، وتوجيه سير التاريخ قوة طفل يمدو به الحصان مسرعاً فلا يملك من القوة
ما يمكنه من كبح جماح ذلك الحصان وضبطه واخضاعه .

فالتاريخ جار على الدوام بقوة دافقة نحو الامام . والفرد بل الملك أو القائد أو السيامي
لا يستطيع سد هذه الحركة أو توجيهها . بل انه في كل ما يمدو عنه من أفعال أو أقوال
انما يعمل ذلك خاضعاً مندفعاً مع تيار التاريخ الغلاب في سبيل معين نحو هدف مقدر محتم
كما أصلنا ، ومقتضى به منذ الأزل .

سير التاريخ

بسطنا فيما مرّ رأْي تولستوي في تعليل الحوادث التاريخية ، وملخصه أن من نحسبهم رجال التاريخ هم في الواقع عبيد التاريخ الأرقاء ، لا يملكون القوة التي بها ينبغي أن يحدث التاريخ ويخضعونها لإرادتهم ويوجهونها وفق مشيئتهم . وفي ما يلي سوف أراجع فعلاً عقده فيلسوفنا في سير التاريخ الدائم وحركته المستمرة .

فتولستوي يرثي للعقل البشري المعجز عن ادراك هذا الاستمرار الدائم المطلق لحركة التاريخ ، أو معرفة القوانين التي يخضع لها كل عنصر من عناصر الحركة منفصلاً عن الآخر غير عاسب أنه من جراء هذه التجزئة المصطنعة سوف يقع في حيرة من الحيرة والارتباك والظلمة الكبير . ويستعين تولستوي على توضيح رأيه بالأسطورة اليونانية المعروفة التي غفلت أذهان الأقدمين وبلبات عقولهم منذ من الزمن أعني بها أسطورة (أخيل والسلحفاة) . وأخاك تذكر أن أخيل لم يستطع ادراك السلحفاة رغم محاولته اللحاق بها ، ذلك لأنه كان يسير بمعدل من السرعة يعدل عشرة أمثال تلك . فكلمة قطع أخيل المائة بينه وبين السلحفاة ، وجدها قطعت عشر المائة أمامه . وحين تقطع ذلك العشر أصبح على بعد واحد من مئة عنه . وهكذا دواليك مما يدل ظاهراً على استحالة ادراكها ، وقد غرّب عن بال الأقدمين وهم يتدارسون هذه المسألة ويبحثون عن حل لها ، أنهم قد ضلوا سبيل الهدى مذ جزأوا المائة كلها إلى أجزاء منفصلة بينها حركة أخيل والسلحفاة معاً استمرار واحد منطلق لا سبيل إلى تجزئته ، وقد تقرب من حل لهذه المشكلة التي تبدو مفضلة بتقسيم الحركة إلى عناصر متناهية الدقة والصغر . بيد أننا لن نصل إلى حل تام بغير جمع حدود المتواليات الهندسية اللانهائية الناتجة عن تجزئة الحركة إلى فترات يرتبط بعضها ببعض بنسبة واحد على عشرة ، التي هي نسبة سرعة السلحفاة إلى سرعة أخيل .

وتولستوي لا يقصو في حكمه على الأقدمين المعجزم عن فهم ما تنطوي عليه هذه الأسطورة من مغالطة ومفصلة ، ذلك أنهم لم يكونوا يملكون بهذا المرح من الرياضيات العالية الذي يسهل عليهم الوصول إلى حلّ يروي الغليل ويرضي العقل . وإنما حين نبحث عن القوانين التي تسير التاريخ وتوجه حركته ، إنما نقترف مثل ذلك الخطأ الذي فيه وقع

الاقدمون بسبب معالجتهم عناصر عديدة مختلفة للحركة بدلا من وحدة تامة مستمرة . لحركة التاريخ الناشئة المتشكرون من مجموعة من الإرادات والرغائب البشرية العديدة ليست إلا حركة داخلة السير لا انقطاع لها ولا انفصال بين الأجزاء والعناصر التي تتألف منها .

وعلم التاريخ يسعى جاهداً إلى معرفة هذه القوانين التي تضبط حوادث التاريخ وتوجه سيره . وهي كذلك الهدف الأسمى لهداه التاريخ في جميع دراساتهم وجهودهم الفكرية العنيفة . بيد أنهم يستهلون تجزئة الحركة ، حتى يعالجوها ، إلى وحدات منفصلة فيفقدون بسبب ذلك في حيرة وإضلال سبيل الرشاد .

وأول سهج يختاره علم التاريخ ويسلكه لتحقيق هذا الهدف يكون باختيار سلسلة من الحوادث المستمرة يخصصها علماؤه ويدرسونها ، إحداهما منفصلة عن الأخرى . مع العلم أن ليس هنالك نقطة ابتداء واضحة معينة لأي حادث تاريخي . ذلك لأن كل حادث يتسبب عن آخر سابق له ، وينبعث منه ، ويتولد عنه . وعلمية الانبثاق والتوليد هذه في استمرار دائم مع الزمان في سيره .

وأما النهج الثاني لعلم التاريخ في صميمه لمعرفة القوانين التي تضبط سير التاريخ فذلك بأن يقع اختيار علماؤه على أقوال فرد واحد وأعماله لتتخذ موضوعاً للدرس والبحث والتنقيب ، مفترضين أن الأفعال والأقوال الصادرة عن فرد واحد تساوي مجموعة إرادات أفراد عديدين أو مشيئة أمة بكاملها . بينما من الواضح أنه لا يمكن لدخمية تاريخية واحدة بالغة ما بلغت من العظمة أن تجمع في ذاتها رغائب ومشيات كثيرة . وكلا السبيلين لا يفضيان بعلم التاريخ إلى بلوغ هدفه الأسمى ، لأنه في كلا الحالتين يختار وحدات صغيرة للتحقق والتدقيق . وهما كانت درجة أهمية الحوادث التاريخية ، فإن دراسة كل واحدة منها منفصلة عن الأخرى ، أو الظن بوجود نقطة ابتداء معينة لكل حادث تاريخي ، أو الزعم بأن إرادة أمة بكاملها يستطيع فرد واحد أن يعبر عنها تعبيراً صادقاً هو خطأ واضح وخطأ في الزمان وضلال ، بل أنه مضيق للعهد والوقت الذين ينقصهما الباحث في هذا السبيل . فالحس عشرة سنة الأولى من القرن التاسع عشر شهدت في أوروبا ملايين من الناس يهرعون مسبلين عيوشهم ويهربون من طوف أوروبا الغربية إلى الأخرى الشرقية ، فينتقلون

ويتناهبون ، فيفرز أحد الفريقين تارة وينخذل أخرى ، ويمعن جميعاً فرانس الضجر والكدر واليأس والمزج . ولعدة سنين تحال وجه الحياة واقامها قد تغير بسبب هذه الحركة التي تنشط في بدء الامر ، ثم تتساقط وتحمق وتتلانثى كأنها لم تكن . فيسأل العقل عن الباعث لذلك وعن القرائن الصابغة لهذه الحركة العنيفة الماثلة ، فيذكر التاريخ جرواناً على ذلك أفعال وأقوال قمر من الناس اجتمعوا في أحد بيوت باريس مسجياً تلك الأقوال والأفعال (الثورة الفرنسية) . ثم يتجاوز ذلك الى سرد ترجمة ضافية لحياة نابليون والسكل من خصومه وأعدائه ، مراحماً مدى تأثير الواحد منهم في الآخر ، وفي الأحداث المتعاقبة لهم جميعاً ، مؤملاً إنك في ذلك أسرف تحيد الحافز الاكيد لتلك الحركة الزاخرة ، وان تكشف القرائن التي تضبطها وتسيرها والعقل لا يرد هذا التعليل ردّاً أو يرفضه بكامله رفضاً خصب ، وإنما يمتداه الى التشديد بهذه الطريقة المقيمة من البحث والتعليل الذي يعطوي على كذب وتعمك وخداع ، ذلك لأنها تبرهن على وقوع حادث قري عنيف من جراء حافز ضئيل ضعيف . فالواقع ان قيام الثورة الفرنسية ، وظهور نابليون قد نبها عن مجموعة من الإرادات الفردية التي أذنت للثورة ولنابليون بالظهور في عالم الوجود التاريخي ، والمجري مع الأحداث المتدفقة في حركة دائمة ، وتساملت في قبولها في أول الامر ، بيد إنها طادت ونبذتهما ، وقضت على الثاني منها قضاء مبرماً ، لأنها لم يعودا يصلحان لخدمة التاريخ وتحقيق أهدافه في ظروفه المتبدلة وللتاريخ في ذلك شأن لا نعرفه ، وهدف يسعى لتحقيقه بجهد كل الجهد . وله فرق ذلك ارادة حديدية لا تخضع لسطال الفرد مهما بدا في حين ما عظيماً في أعين الناس . ويؤمن التاريخ أنه مع كل فتح لا بد من فاتح ، وفي كل ثورة لا بد من رجال يضرمون أوارها . فيجيب العقل هازئاً ساخراً ، ولكن ليس ثمة ما يبدل على أن الفاتح أو الثائر هما سبب الفتح والثورة ، ذلك لأن قواعد الحرب أو الثورة لا يمكن أن تتركز في جهود فرد واحد ونشاطه . ومثل علم التاريخ في تحليله هذا وأسلوب بحثه كمثل من ينظر الى الساعة فيرى عقاربها تدور الى العائسة ، فيسمع عندها أجراس الكنيسة تفرع ، فيظن بل يحزم أن فرغ الأجراس سبب وصول العقارب الى العائسة . كأن هناك آصرة أو علاقة وثيقة بين حركة العقارب والوضع الذي تتخذه ، وبين فرغ الأجراس . أو كمثل القطار تراه

هم بالسيف فتسمع أكثر صفارة الايدان بانصر ندوي ، والصمامات تمتنع والدواب
تتحرك ، فنظن أن هذا الصغير وانفتاح الصمامات وتحرك الدواب هو على حركة القاذرة
وسبها الحقيقي . ومثل هذا أيضاً اعتقاد التلاحين في روسيا بأن هبوب الرياح الباردة في
أواخر فصل الربيع قد تنج عن ظهور براعم الزهر على شجر البلوط . ومع أننا نحجز السبب
الذي حدا إن مجي الرياح وظهور البراعم في حين واحد فليس ثمة ما يدل على أن هبوب الرياح
ناشئ عن هذه البراعم . إذ كيف يصح ذلك ما دامت الريح على حظ وانز من التربة
والشدة بحيث لا يؤثر فيها ظهور البراعم الصغيرة اللطيفة .

إننا في جميع هذه الأحوال إما نرى حظ المصادفة في وقوع الحوادث ، كالذي يجري في جميع
براهي الحياة ليس أكثر . وهما أمنت النظر في عقارب الساعة وتحدثت مصادم القطار
ودوابه وشجر البلوط وبراعم زهره ، وبانتهت في الملاحظة والدرس ، فأنك لن تعرف السبب
الحقيقي لقرع الأجراس وتحرك القطار وهبوب الرياح في أواخر فصل الربيع عن هذا
الطريق . وما عليك لسكي تتوصل إلى معرفة ذلك إلا أن تبدل وجهة نظرك بالسكينة ،
وإن تنهج نهجاً آخر في الدرس والتخصيص ، فتحاول معالجة القوانين التي تضبط حركة
البخار وقرع الأجراس وهبوب الرياح وتبديدها وتسيرها .

ولسكي تنكشف لك القوانين التي تضبط التاريخ وتسيطر على حوادثه وتوجه حركته
لا بد لك أيضاً من تبديل موضوع الملاحظة وحقل الدرس واتجاهه تبديلاً تاماً ، وانتهاج
سبيل آخر للوصول إلى الحقيقة . وذلك بأن تدع الملوك والوزراء والقواد جانباً ، وأن
تلتمس أن العناصر الدقيقة العامة والموامل المأثرة التي تحفز الشعوب وتحرك الجماهير فإنها
هي التي تصنع التاريخ إن لم تكن التاريخ نفسه .

ومع أن مدى التقدم في الوصول إلى فهم قوانين التاريخ عن هذا السبيل لا يزال
قاصداً محدوداً لا يبعث على الرضى والارتياح ، إلا أن اثنين لا يختلفان في أنه السبيل
الأوحد المنفذي إلى هذه الغاية النبيلة وإن جهود المؤرخين في هذا المضمار لمن القلة والضعف
والضعف ، بحيث لا تقاس بمجهودهم الجارية في وصف وتفصيل وتحليل أعمال القواد والوزراء
 والملوك ، والانهاء من ذلك كله إلى نتائج وهمية خيالية لا يرضى بها العقل .